القرآن الكريم مصدراً للمعرفة ومحوراً للنشاط الفكري

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

القرآن الكريم مصدراً للمعرفة ومحوراً للنشاط الفكري

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري (*)

ليس القرآن كتاب علوم ومعارف عامة، ولكنه كتاب هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، يحث على التفكر والتدبر وإمعان العقل؛ ولذلك يتجنب الصوابَ من يقحم القرآن في البحوث العلمية والمخترعات والاكتشافات، ويربط بينها وبين ما جاء في كتاب الله العزيز على سبيل (التفسير) غير مأمون العواقب، فالقول بأن القرآن يشتمل على المسائل العلمية التي لا تتعارض مع ما وصل إليه العلم الحديث، قول مردود لأنه يعرض كتابَ الله لما لا يجب أن يعرض له.

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، المنزل على رسوله ونبيّه محمد ابن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، وهو منهاج شامل للحياة في أبعادها المختلفة، وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة:77). كما وصفه بأنه يهدي للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء :9)، وبيّن سبحانه ما يتضمنه القرآن من فيوض بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل : 89). فالقرآن منهاج للفرد، يتضمن الأصول الموجِّهة لحياته، وعلاقته بالرب سبحانه، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته المسلمة، وعلاقته بالآخرين من غير

(*) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

المسلمين، ممن يسالمونه وممن يحاربونه، كما أنه دستور للأمة وحبل الله الذي لا ينفصم[1].

والقرآن الكريم كتاب هداية للبشرية، في كل زمان ومكان. ومفهوم الهداية شامل وعميق، ومن معاني الهداية أن الكتاب العزيز يشتمل على الأصول الإيمانية والقواعد التشريعية الكلية، والمبادئ القويمة العامة لحياة الفرد والمجتمع، وجوامع الحكم التي تنير السبيل أمام الإنسان وتهديه إلى ما فيه خير الدارين.

لقد احتوى القرآن الكريم من الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية والأحكام التشريعية، في آياته البينات على:

1- في العبادات (على نحو مائة وأربعين آية).

2- في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ووصية وإرث وغير ذلك (على نحو سبعين آية).

3- في المجموعة المدنية من بيع وإجارة ورهن وشركة وتجارة (على نحو سبعين آية).

4- في المجموعة الجنائية من عقوبات وجنايات (على نحو ثلاثين آية).

5- في القضاء والشهادة وما يتعلق بهما (على نحو عشرين آية).

والقرآن الكريم هو دستور الحياة الإسلامية كلها، والمصدر الأول للهداية الإلهية في توجيه تلك الحياة إلى الحقّ والخير. وبالهدي القرآني بنى المسلمون حضارتهم الشامخة التي امتدّ نفعها إلى البشرية قاطبة، وإلى ذلك الهدي يفزعون كلما حزبهم حازبٌ من ذات أنفسهم أو من دوائر أعدائهم، فحرّف مسار حياتهم عن طريق الحق، يبغون فيه تقوية ما ضعف من حالهم،

(1) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط.1 (القاهرة: دار الشروق، 1999م) ص418.

وتعديل ما انحرف من سيرهم. وكما كان المسلمون يعلمون أنّ في هداية الذكر الحكيم سداد حياتهم وشهود حضارتهم وقوّة شوكتهم، كان أعداؤهم يعلمون ذلك، فاتجهوا من بين ما توجهوا، في معرض التدافع معهم، إلى ذلك المصدر الهادي، يحاولون النيل منه والحطّ من قدره في عيونهم، وذلك بإثارة الشبه حوله، والغمز في تاريخه ومبناه ومحتواه، قصداً في ذلك إلى أن يهون أمره في النفوس، فلا يبقى له فيها تأثير يصحّح وجهتها عند الانحراف، ويقوّي عزمها عند الضّعف.

ولم يكن ما لحق القرآن الكريم من محاولات النيل هذه قاصراً على مجال الدعاية التلقائية وردود الأفعال العفوية، وإنما أصبح ممتداً إلى دوائر البحث العلمي، ومتسرباً إلى الموسوعات ودوائر المعارف الواسعة الانتشار بين المسلمين. وقد كانت «دائرة المعارف الإسلامية» التي تطبع في «دار بريل» في مدينة «لايدن» الهولندية، وهي الواسعة الانتشار في الأوساط العلمية الإسلامية وغير الإسلامية، في مقدمة الموسوعات والمراجع التي تحمل من الغمز في القرآن والتشويه لصورته والتحريف لحقيقته شيئاً كثيراً، سواء في ذلك طبعتها القديمة وطبعتها الجديدة.

ومهما يكن من أن القرآن الكريم محفوظ بالوعد الإلهي من أن تناله أيدي المحرّفين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، ومهما يكن من أن بعض ما يُوجّه إلى القرآن الكريم من المطاعن يصدر عن دسيسة مغرضة أو عن جهل أو عن خلل في المقتضيات المنهجية للبحث العلمي، فإنه يكون من الواجب التصدّي لهذه المطاعن، والكشف عن زيفها، وتصحيح أخطائها وهفواتها، إظهاراً للحقيقة،

وحيلولة دون أن يهون القرآن في النفوس، فلا يكون له فيها تأثير. وهذا الواجب هو الذي قامت به المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو»، حيث نشرت سلسلة كتب بالعربية والإنجليزية والفرنسية، منها كتاب «القرآن الكريم: دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن»، هذا الكتاب الذي يتتبع بالتصحيح ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية من الأخطاء متعلقة بالقرآن الكريم، وهو الكتاب الثاني في سلسلة «تصحيح ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة»[1].

وظهرت بعد ذلك موسوعة أوروبية جديدة متخصصة في الطعن في القرآن الكريم ونشر الأباطيل والشبهات عنه، هي «موسوعة القرآن Encyclopedia of Qur'an» الصادرة عن دار النشر الهولندية «إ.ج.بريل E.J Brill»، بإشراف المستشرقة الكندية «جين ماك أوليف Jane McAiliffe»، وتقع في ستة أجزاء. وقد جمعت هذه الموسوعة بين دفتيها من الافتراءات والأباطيل على القرآن الكريم مما فاضت به كتابات المستشرقين المتقدمين والمحدثين من الطعون والشبه، وقدمت معلومة قريبة ومواتية ولكنها مغرضة، في شكل هذه الموسوعة ذات الطابع المرجعي.

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتاب له رصد فيه الأباطيل ضد القرآن الكريم التي يروجها أعداء الإسلام يحمل عنوان: «لا يأتيه الباطل»: «ويهبّ اليوم أئمة هذه الحرب المشهرة على القرآن

(1) عبد العزيز بن عثمان التويجري، في تقديمه لكتاب: القرآن الكريم: دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن (الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 2003م).

ودعاتها، في تحركات عشوائية يائسة، تمطر القرآن بترهات وأكاذيب مختلقة باطلة، من خلال أقنية فضائية متخصصة، وعن طريق إذاعات موجهة، وبواسطة صحف ومجلات شائعة .. وعن طريق ما استطاعوا أن يصلوا إليه أخيراً من تجنيد "الفاتيكان" نفسه للاشتراك في الحرب اليائسة، أما الميزانية بل الميزانيات المرصودة لإنجاح هذه الحرب اليائسة، فهي - فيما يؤكده كثير من مواقع الإنترنيت - أرقام من الكثرة عجيبة ومذهلة، تنوء عنها الدول الحضارية العظمى، إلا تلك التي تمسك بزمام القيادة في إلهاب هذه الحرب وتوجيهها.

وليس في الناس اليوم من لا يعلم أن القرآن لو كان افتئاتاً على الله من قِبل محمد ﷺ أو أيّ من الناس، لقضي عليه وأصبح أثراً بعد عين ومجرد تاريخ يُروى، بمعشار هذه الجهود اليائسة، وبأدنى من قدر الفائدة الربويّة التي تُجنى من هذه الميزانيات كلها.

ولكن ها هو ذا القرآن يعلن عن وجوده متألقاً صافياً من الشوائب كلها، لم يتماسك على صفحة إشراقه شيء من غيوم الشبهات والتقولات الباطلة التي تلصق به، يتحدى العصور والأجيال المتطاولة أن تنال منه أي منال، وها هم أولاء الناس الذين تحرروا من سلطان الرعونات والعصبيات والأسبقيات، لم تمنعهم غربتهم عنه واستغرابهم له وجهلهم به، أن يُقبلوا فينصتوا إليه، ويضعوه من الاهتمام والاعتبار في موازين عقولهم، دون أي تأثر بالسحب الداكنة التي عكف على نسجها قادة هذه الحرب ودعاتها ... وإنها لكثرة لا تحصى تلك التي تعتنق الإسلام عن طريق كلام الله وبيانه،

في تلك المجتمعات الغربية عن القرآن والإسلام، وإن الذين يعتنقونه ويمارسونه سراً هناك، أضعاف الذين أعلنوا اعتناقهم له وتمسكهم به.

فمن أجل هذا أُعلنُ وأؤكد أن هذه الحرب ضد القرآن على الرغم من شراستها وضخامة الأموال والجهود المرصودة لها، حرب يائسة حقاً، وأن حركة قادتها وجنودها ليست إلا حركة مذبوح»[1].

ونشراً للمفاهيم الصحيحة للثقافة الإسلامية، وتيسيراً للوصول إلى المصادر الأصلية للمعرفة الدينية التي تستند إلى القرآن الكريم، من حيث ضبط المصطلحات، وشرح المفردات، وتحليل المدلولات التي تعبّر عن الحقائق القرآنية الساطعة بدقة وأمانة، صدرت «الموسوعة القرآنية: خصائص السور» عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وبالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. وهي عملٌ موسوعيٌ جديد، يتناول خصائص السور القرآنية، على نحو يساعد في فهم آي الذكر الحكيم، والولوج إلى الآفاق الممتدة لعالم القرآن، كما يساعد في سبر أغوار معانيه السامية، والإلمام بقسماتٍ مضيئة من مبناه الذي جمع البساطة إلى الإعجاز.. مضمون هذه الموسوعة ماثلٌ في أبواب تسمى مباحث، تتناول، من كل سورة: أهدافها، وترابط الآيات فيها، وأسرار ترتيب ورودها بين السور الأخرى، ومكوّناتها، ولغة التنزيل العائدة إليها، ومعانيها اللغوية، ومعانيها المجازية، ومسائل متفرقة تواجه القارئ، عنوانها في الموسوعة: لكل سؤال جواب. وقد انتُقِيَت موادُّ هذه الموسوعة من أمهات كتب التراث العربي الإسلامي، ومن المؤلفات الحديثة في علوم القرآن. والجديد اللافت في

(1) محمد سعيد رمضان البوطي، لا يأتيه الباطل: كشف أباطيل يختلقها ويلصقها بعضهم بكتاب الله عز وجل (دمشق: دار الفكر، 2007م) ص11-12.

الموسوعة: أنها جمعت، في حيّز واحد، موضوعات قرآنية متفرّقة، تعوّدنا أن نطلبها في مراجع مختلفة، تندرج في ما يعرف بـ «**علوم القرآن**»، وأن أوثق المراجع المتفق عليها، وأوفاها، قد اختيرت لها، فجاءت مباحثها مستوفية لموضوعاتها، محققة لأغراضها(1).

إن القرآن الكريم حجة الله البالغة وكلامه المعجز ودستور الحياة، لم يترك كبيرة أو صغيرة من حياة الإنسان إلاَّ ووضع لها القواعد الكلية لانتظامها مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ولقد كان الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي بليغاً ودقيقاً فيما كتبه عن هذا المنحى من مناحي القرآن الكريم، مستوعباً أبعاده في دقة، في كتابه القيم «كيف نتعامل مع القرآن العظيم» الذي يغني عن الكثرة من المؤلفات التي صدرت حول هذا الموضوع في هذا العصر، لشموله لقضايا عديدة تتصل بالموقف من القرآن، حيث قال: «للقرآن الكريم وظيفة سامية في الحياة الإسلامية، إلى جوار كونه منهاج العمل لحياة الفرد المسلم، وقانون الحكم والتشريع للمجتمع المسلم، أو للدولة المسلمة، هو كذلك دستور الدعوة إلى الإسلام. فهو كتاب عالمي، موجه إلى الناس كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 1)، وإن نزل بلسان العرب. ومن قرأه وتدبره يلحظ فيه هذه العالمية ما بين أول آية بعد البسملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وآخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس:1- 3). فهذا هو القرآن يتحدث عن الله ﴿رَبِّ

(1) عبد العزيز بن عثمان التويجري، في تقديمه للموسوعة القرآنية: خصائص السور، المجلد الأول (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية والإيسيسكو،1999م).

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿**رب الناس**﴾ لا رب العرب، ولا رب إسرائيل! كما تقول التوراة.

ونداءات القرآن موجهة من الله تعالى، لا تحمل أي طابع عنصري أو إقليمي أو طبقي، لأنها إما موجهة إلى (الناس) كافة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة:21)، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: 1)، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:13). وقد وجه هذا النداء الربانيُّ إحدى وعشرين مرة في القرآن. ومثله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وقد وجه مرتين في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ (الانفطار:6)، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6).

ومثلها ما وجه إلى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ مثل: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:31). وقد جاء هذا النداء خمس مرات في القرآن.

ومثلها ما وجه إلى العباد مضافين إلى الله تعالى بياء المتكلم ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، وهي إضافة تشريف وتكريم مثل: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت: 56). أو إضافة إيناس وتقريب، مثل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: 53). وقد وجه هذا النداء في القرآن خمس مرات.

وإما موجهة إلى أهل الأديان السماوية السابقة من اليهود والنصارى، وقد اختار القرآن صيغة تؤنسهم وتقربهم، وهي ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مثل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ (آل عمران:64) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران:71)، وقد تكررت اثنتي عشرة مرة.

وإما موجهة إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .. وهذه الصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لم تعرف إلا في القرآن المدني، بعد أن أصبح للمسلمين جماعة وكيان مستقل. وقد جاءت في القرآن أكثر من تسعين مرة.

وهذه النداءات الربانية كانت جديدة على العالم، وقد قرعت سمع الجزيرة العربية لأول مرة، بعد أن كان الناس لا يتنادون إلا بـ (يا بني فلان) أو (يا عرب) أو (يا عجم). أما النداء بصيغة إنسانية أو الإيمان، فلم يكن لأحد به عهد.

وقد أعلن القرآن عالمية دعوته، وأعلن الرسول الكريم (ﷺ) عموم رسالته من أول يوم. فهي رسالة عامة في المكان، خالدة في الزمان، شاملة لكل شؤون الإنسان»[1].

وتأكيداً لهذه المعاني التي تؤكد عالمية الرسالة القرآنية إلى الناس كافة وتثبت صمود الإسلام في وجه أعدائه، يقول عباس محمود العقاد في فصل حرره عن (القرآن والزمن) من كتابه «المرأة في القرآن»:

(1) يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص431-432.

«بقي القرآن الكريم في العالم الإسلامي نحو ألف وأربعمائة سنة قوة عاملة يعتصم بها في إقباله وإدباره، وفي عزته وانكساره، بل كان هو القوة العاملة التي نفعته حين فارقته جميع القوى التي تنتفع بها الأمم، فكان له قوة تعينه على التقدم والنماء، كما كان له قوة تعينه على الثبات والمقاومة، وابتلي المسلمون في أيام ضعفهم بسطوة الطامعين فيهم، وعداوة القادرين عليهم، فلا تعرف دولة من الدول الطاغية لم تفتح بلداً من بلدان المسلمين، أو تدخله بالحيلة والمكيدة، ولا تعرف لهذه البلاد المغلوبة قوة تعوذ بها، غير إيمانها بهذا الكتاب: إن الإيمان بالقرآن وقبول الخضوع لغير رب العالمين، نقيضان لا يجتمعان في قلب إنسان» (1).

وفي هذا المعنى قال عباس العقاد أيضاً: «إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين، ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمي إليها، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون» (2).

وهذا الكلام ينطبق على قرننا الحالي الحادي والعشرين، بل وعلى جميع القرون المقبلة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فليس القرآن الكريم كتاب علوم ومعارف عامة. ولكنه كتاب هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، يحث على التفكر والتدبر وإمعان العقل. ولذلك

---

(1) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية (بيروت: دار الكتاب العربي، 1971م)4/519.

(2) عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، المرجع السابق، ص 218.

يتجنب الصوابَ من يقحم القرآن في البحوث العلمية والمخترعات والاكتشافات، ويربط بينها وبين ما جاء في كتاب الله العزيز على سبيل (التفسير) غير مأمون العواقب. فالقول بأن القرآن الكريم يشتمل على المسائل العلمية التي لا تتعارض مع ما وصل إليه العلم الحديث، قول مردود لأنه يعرض كتابَ الله لما لا يجب أن يعرض له، فهو كتاب هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، وكتاب توحيد ودعوة الناس كافة إلى الحق والعدل والمحبة والإخاء الإنساني، وتحرير للعقل من العبودية لغير الخالق عز وجل.

وفي هذا المجال يردّ الشيخ محمود شلتوت في كتابه «تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى» على من يقول بربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية، فيقول: «هذه النظرة للقرآن الكريم خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف. وهي خاطئة من غير شك، لأنها تحمل أصحابَها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم. وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير؛ فقد يصحُّ اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات. فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرضناه للتقلب معها وتحمّل تبعات الخطأ فيها، ولأَوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه. فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظاهر الطبيعة، إنما هو لقصد الحث على التأمل

والبحث والنظر، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم. وحسبنا أن القرآن لم يصادم، ولن يصادم، حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول»[1].

ويلتقي عباس محمود العقاد مع شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت، في إبطال ربط القرآن بما تصل إليه نظريات العلم الحديث، حيث يقول: «كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به، أن كتابه الإلهي يأمر بالبحث والتفكير، ولا ينهاه عنه، ولا يصدّه عن النظر والتأمل في مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة، وهي عرضة بعد قليل للنقص أو التعديل، بل لا يأمره الكتاب بالتوفيق بين الكيفيات التي يفهمها العلم والكيفيات التي يقدرها العقل لفهم المسائل الكونية في بداءتها الأولى ونهايتها الأخيرة بين طوايا الغيب المجهول، لأنه لا ينبغي أن يعلم ـ عقلاً وإيماناً ـ بأن اليوم إذا نسب إلى الإله أو نسب إلى عمر الكون أن يفهم منه أنه يوم من أيام عمر الإنسان، قبل أن يوجد وقبل أن توجد الأرض التي خلق عليها الإنسان. فنحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لأفكارنا من علوم العصر الذي نعيش فيه، ولكننا لا نطالب في عصر من العصور بأن نعلق إيماننا بتفسير النظريات العلمية، وهي لا تستقر عصراً واحداً على تفسير غير قابل للنقض أو التعديل والتحوير»[2].

---

(1) الشيخ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى، ط.12 (القاهرة: دار الشروق، 2004م).

(2) عباس محمود العقاد، الفلسفة القرآنية، موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية (بيروت: دار الكتاب العربي، 1971م) ص 207.

والقرآن الكريم رسالة السماء الخاتمة. وبذلك فهو كتاب الله الخالد إلى أن تقوم الساعة. فهو كتاب للزمن كله، أمس واليوم وغداً. وهذا الخلود يجعل من كتاب الله دستوراً دائماً للإنسانية فوق هذه الأرض، تؤمن به، وتتفهمه، وتكتشف حقائقه جيلاً بعد جيل. وفي هذا السياق يعجبني ما قاله الشيخ محمد الغزالي في محاوراته مع الأستاذ عمر عبيد حسنة، التي نشرت في كتاب يحمل عنوان «كيف نتعامل مع القرآن». والعجيب أن هذا العنوان هو نفسه العنوان الذي اختاره الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي لكتابه الآنف الذكر، وقد أشار في مقدمة ذلك الكتاب إلى هذا التشابه بين العنوانين.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «هناك إجماع بين المسلمين على أن القرآن، من ناحية الطول، يستغرق الزمن كله، بل يتعدى الزمن، يقول الرسولﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[1]. فكأن القرآن امتدادٌ للزمن تَتجاوز هذه الحياة، إلى أنه سيقرأ في الجنة. وامتداده العرضي يشمل الأجناس كلها.. نحن الآن في القرن الخامس عشر للهجرة، لكن الأجناس متفاوتة في ذكائها، ومستواها العلمي. وممكن لكل من هذه الأجناس أن يصل إليه القرآن، ويتجاوب معه، ويفهم منه. والعبارة القرآنية فيها مرونة تجعل معاني كثيرة تخرج منها أو تتحملها الآية.. وهذا ما أشار إليه الإمام علي، رضي الله عنه، عندما قام ابن عباس، رضي الله عنهما، وجادل الخوارج : «لا تحاجّهم بالقرآن، فإن

(1) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، في كتاب **فضائل القرآن**، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

القرآن حمّال أوجه...».. فكلمة «حمّال أوجه» هي في الحقيقة تشير إلى طبيعة الصياغة القرآنية.. وكان لابد أن تكون في الصياغة هذه المرونة لكي تبقى وتكون ممتدة مع الزمن.. ففيها مرونة ظاهرة بحيث إنه إذا تكلم في التاريخ أو تكلم في وصف أرض، أو تكلم في شيء، تنزل عبارة لها نسيج معين بحيث يمكن أن يستقبلها العبقري ويغوص فيها، ويمكن أن يصل إليها العامي ويستقر عند حدودها الأولى. فهذا من خصائص القرآن الكريم. وقد لاحظ هذه الخصائص كل متذوق للقرآن. فالكتاب لكي يكون للزمان كله، وللعقول كلها، وللقلوب كلها، كانت صياغته فيها هذه المرونة العجيبة التي تجعل كل الناس مهما تفاوتوا يستريحوا إليه، وينبعثوا عنه وهم راضون.. ولذلك، نرى قفزة العلم في عصرنا هذا، وبالذات في الستين سنة الأخيرة، فقد تضاعف العلم البشري أكثر مما تضاعف خلال الزمن كله، ومع هذا يبقى القرآن، ولو أن إينشتاين قرأه لما وجد فيه ما يناقض العلم الذي اكتشفه في الكون، بل لوجد أن خالق الكون كما رآه هو في ثنايا البحث المادي، هو منزل هذا القرآن الذي يشعر قارئه بأنه حكيم وعليم وعظيم، بقدر ما فهم هو من دراسته الكونية[1].

وصلاحية القرآن لكل زمن ومكان، تقتضي أن تكون دعوته دعوة عالمية موجهة للإنسانية جمعاء، وتستدعي إلى ذلك حفظ القرآن الكريم من لدن رب العالمين. والقرآن الكريم منذ أن نزل به الوحي على الرسول ﷺ حفظته جموع من الناس شفاهة، وتناقلته جيلاً عن جيل بالتوازي مع النشر

(1) الشيخ محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، في مدارسة أجراها معه الأستاذ عمر عبيد حسنه، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(5) ط.2 (المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ المنصورة/مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر، 1992م) ص204-205.

الكتابي للمصاحف. وهل نجد عدداً غفيراً يفوق الحصر من حافظي ومرتلي نص رسالة سماوية في كل جيل من أجيال الإنسانية غير قُرَّاء القرآن الكريم؟. وكل جيل من المسلمين في كل زمان يصلي بنصوص من تلك الرسالة. هذا والقرآن لم تتغير لغته العربية إلى اليوم، فلغته ما زالت حية بين الشعوب، ولا يشق على الناس في مجتمعاتنا الحاضرة الإطلاع على القرآن بالعربية، أو على معانيه المترجمة إلى اللغات الأخرى[1].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم «النبأ العظيم» عن حفظ الله تعالى للقرآن الكريم: «وفي تسميته بهذين الاسمين (القرآن، الكتاب) إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى. فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ؛ بالإسناد الصحيح المتواتر. وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها، بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، وبل وكلها إلى حفظ الناس لها»[2].

---

(1) مجموعة من الباحثين، لغات الرسل وأصول الرسالات (الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 2002م) ص228-231.

(2) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن، ط.1(الكويت: دار القرآن الكريم، ودار القلم، 1971م) ص8.

وفي كتابه المتميّز «مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن» يمحص الدكتور محمد عبد الله دراز هذه القضية تمحيصاً ويزيدها وضوحاً بعد وضوح، حيث يلقي نظرات جديدة إلى القرآن الكريم جديرة بالتقدير، فيقول : «إنه يتضح من البحث أن النص القرآني الذي بين أيدينا اليوم لا يرجع إلى الخليفة الثالث، عثمان بن عفان، كما يقال، ولا إلى الخليفة الأول أبي بكر، وإنما هو مطابق مطابقة حرفية للنص المكتوب بإملاء الرسول، عليه الصلاة والسلام، والذي حفظ بعناية وتقديس في صدور الصحابة وقرائهم. وبعد أن حفظ النص القرآني على هذا النحو، بعيداً عن أي خلط أو شكوك، انتقل كما هو معلوم من جيل إلى جيل بأمانة وتقديس حتى وصل إلينا، والدليل الذي يقطع بصحته يكمن في أنه رغم الخلاف الذي نَزَغَ بين المسلمين مبكراً بسبب تباعد آرائهم السياسية، فقد ظل القرآن واحداً في العالم الإسلامي كله حتى بالنسبة للفرق الإسلامية الحانقة على الخلفاء الثلاثة الأول»(1).

ولقد حرر القرآن الكريم العقل الإنساني من الأوهام وبدّد الضلالات التي كانت تحول دون رؤية الحقائق الكونية واللطائف الربانية في خلقه. وبذلك تقوم نظرية المعرفة في القرآن على أساس التعادل والتكامل والتوازن بين الكم والكيف والروح والمادة والغاية والسبب. فقد ربط القرآن بين الحواس والعقول والوجدان ودعا إلى استعمال السمع والبصر(2).

---

(1) محمد عبده، رسالة التوحيد، ضمن الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة، ط.1 (القاهرة: دار الشروق، 1993م) ص464.

(2) أنور الجندي، المصدر السابق، ص 13.

يقول الشيخ الإمام محمد عبده في عبارات قوية عميقة موحية ومشرقة: «لقد كشف القرآن عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير: «العالم» والكون الصغير: «الإنسان»، فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزلي، لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغي أن يحيى ذكرها عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَصَلُّوا**». وفيه تصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد، لا يقضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامتها عليها»[1].

ولما كان التقليد جموداً وحجاباً يحول دون إعمال العقل والتفكير والاجتهاد، فإن القرآن الكريم، قد نهى عن التقليد. وفي هذه المسألة يقول الشيخ محمد عبده: «لقد أنحى القرآن على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم، صاح العقل صيحة أزعجته من سباته وهبت من نومةٍ طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيمنة (الصوت الخفي) من سدة هياكل الوهم: «نم فإن الليل حالك، والطريق وعرة والغاية بعيدة، والراحة كليلة والأزواد قليلة»[2].

---

(1) المصدر نفسه، صفحة 454، والحديث أخرجه البخاري.

(2) الشيخ محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ط.8 (القاهرة: دار الشروق، 2004م) ص116.

ويحث القرآن الكريم على التفكير في خلق السموات والأرض وفي الحياة وفي الكون وفي الإنسان. وهذا التفكير هو مصدر المعرفة. وحول هذا الموضوع يقول الشيخ محمود شلتوت موضحاً هذه المسألة: «لقد كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض بأساليبه برهاناً واضحاً على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرته. وإذن يكون كل ما ورد في القرآن حثاً على التفكير إعلاناً عن فضل العقل، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم، وإيحاء بتحصيله، فيقف الإنسان على الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويحرر من رق الأوهام والخرافات. وبذلك كان الإسلام دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم، وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلاَّ ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم»[1].

لقد ارتفع القرآن الكريم بالعقل، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سبباً في عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجري على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:10). وكذلك ارتفع القرآن بالعلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(آل عمران:18).

---

(1) المصدر السابق.

ولقد قدم القرآن الكريم منهجاً وافياً حول الفكر والعلم والمعرفة، فقد كانت دعوته قائمة أساساً على النظر إلى ما في السموات والأرض، والتعرف إلى قدرة الله تبارك وتعالى وعظمته في الخلق وفي الآفاق، وكيف يبدأ الخلق ثم يعيده، وكيف بدأ الخلق ثم الله (تبارك وتعالى) ينشئ النشأة الآخرة. ودعا القرآن الناس كافة، دون جماعة معينة، إلى التأمل في خلق السموات والأرض وخلق الناس واستعمال الحواس والعقل والتفكير وإلى الاهتمام الكبير بالحساب والهندسة والفلك والتجارة والحساب والانتقال من النظر إلى التجربة وتقديم البرهان. ومن هنا نجد هذه الألفاظ المتصلة بالعلم والمعرفة قد وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم على هذا النحو :

(رأى) وردت 332 مرة، **(نظر)** وردت 99 مرة، **(عرف)** وردت 34 مرة، **(علم)** وردت 8030 مرة، **(ذكر)** وردت 247 مرة، **(فقه)** وردت 20 مرة، **(عقل)** وردت 48 مرة، **(فكر)** وردت 19 مرة، **(الألباب)** وردت 16 مرة، **(الحكم)** وردت 19 مرة، **(الحجاج)** وردت 69 مرة، **(الجدل)** وردت 29 مرة[1].

وهكذا، فإن القرآن الكريم بأنواره المشعة وبفيوضاته المتدفقة وبآياته الباهرة الدالة على حكمة الله في خلقه والداعية إلى التفكير والتدبير والتفقه والبحث عن المعرفة وطلب العلم، كان ولا يزال وسيبقى مادامت الحياة فوق هذه الأرض، مصدراً للمعرفة ومحوراً للنشاط الفكري، ودعوة دائمة إلى الاجتهاد لمواكبة تطور الحياة وارتقاء العلم وازدهار المعرفة الإنسانية.

---

(1) أنور الجندي، المصدر السابق، ص 183.

فرسالة القرآن الكريم رسالة خالدة، وهي رسالة ربانية موجهة للإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان. ولذلك فإن أمة القرآن مسؤولة أمام الله تعالى ومأمورة بتبليغ هذه الرسالة الخالدة للعالمين، وقبل ذلك هي مسؤولة ومأمورة بإقامة الدين والعمل بمقتضى أحكام القرآن الكريم وبتعاليمه ومبادئه، وفقاً لهدي القرآن، وطبقاً للمنهاج الذي جاء به، والذي هو منهاج الحكمة والتبصر والاعتدال والوسطية.